من الشباب الباكر إلى النضج (1)

الأخ محمد قطب

هذه مرحلة من أخصب مراحل العمر ، ومن أجملها عند الإنسان حين تصبح ذكرى فيما بعد !

ولئن كانت مرحلة النضج التي تلي ذلك هي **أهم** مراحل العمر من الناحية العملية ، إذ هي مرحلة الإنتاج مـــن ناحية ، ومرحلة استواء الشخصية على صورتها المتكاملة من ناحية أخرى ، إلاّ أن مرحلة الشباب الباكر حتى النضج هي أكثر فترات العمر حيوية ونشاطاً وتدفقاً وتطلعاً وحركة ..

إنها مرحلة نمو واعٍ ، وتطلع إلى الزيادة في كل اتجاه .

نمو جسدي ظاهر وتطلع إلى مزيد ..

ونمو عقلي ظاهر وتطلع إلى مزيد ..

ونمو نفسي .. ونمو عاطفي .. ونمو روحي ..

نمو في الخبرة ونمو في القدرة ونمو في المعرفة ونمو في المواهب والاستعدادات ..

نمو في كل اتجاه .. وتطلع دائم إلى المزيد ..

هي فترة العواطف المتدفقة من كل نوع ، وفترة التحصيل العلمي والقراءة والاطلاع . وفترة النشاط الجـــسماني الموار . وفترة التعلق بالمثل والمثاليات . وفترة التفكير في مشاكل المجتمع ومشاكل السياسة ومشاكل البشرية !

وهي فترة الرغبة الدافقة في الإصلاح والعمل المتحمس للتغيير ، ومن هنا فهي فترة الانتمـــاء إلى (الجماعـــات) و(الجمعيات) و(الأحزاب) و(التكتلات) ، سواء كانت هذه كلها مما يستحق أو لا يستحق ، فالرغبة في (الانتمـــاء) والرغبة في الإصلاح والتغيير ، كثيراً ما تكون أكبر عند الشباب من القدرة على التمييز والقدرة على التحمـــيص .. وكثيراً ما يكون البريق الخاطف أكثر لفتاً للشباب في هذه المرحلة من الجوهر والمضمون .. ولكنه –حين ينتمي– فهو ينتمي بكل إخلاصه وكل مثاليته وكل جهده وكل حيويته ، وكل رغبته الحقيقية العميقة في الإصلاح والتغيير ..

فترة خصبة لا تتكرر في حياة الإنسان .

والحق أنه لا توجد مرحلة تتكرر ! فالطفولة لا تتكرر ، والمراهقة لا تتكرر ، كما أن هذه المرحلة أيضاً لا تتكرر. ولكن الإنسان حين يدلف إلى الشيخوخة ويعاوده الحنين إلى ما مرّ من سنوات العمر ، فقليلاً ما يفكـــر في مرحلـــة الطفولة أو المراهقة أو يتمنى العودة إليها ، ولكنه دائماً يحن إلى مرحلة الشباب . ذلك أنها تتميّز بالحيوية والـــوعي في آن واحد . ولئن كان الوعي يظل مع الإنسان بعد ذلك بل يزيد ويتركز ، ويصبح هو أهم ما يملكه الإنـــسان مـــع الخبرة المتزايدة ، إلاّ أن الحيوية هي التي تظل تتضاءل حتى تخفت . ومن هنا يتمنى الشيخ -الذي يملـــك الـــوعي- أن يسترد ما فقده من حيوية الشباب !

* * *

ولئن كانت مرحلة الطفولة مرحلة نمو وتغير دائم لا يتوقف ، حتى إنّ اليوم الواحد قد يضيف مزيداً من النمو في بعض الأحيان ، سواء في مرحلة المشي أو النطق أو مرحلة التقاط الخبرات وظهور الاستعدادات ..

ولئن كانت مرحلة المراهقة مرحلة تفجر جسدي وروحي مع النمو العقلي المتزايد ..

فإن مرحلة الشباب الباكر الممتدة حتى النضج هي مرحلة نمو من نوع متميّز ..

ليس فيها التغيير السريع الذي يميّز مرحلة الطفولة ، ولا التفجر المتقلب الذي يصحب مرحلة المراهقة ، إنما فيهـــا النمو المفضي إلى النضج وهو لون خاص غير اللونين السابقين ..

أرأيت إلى الثمرة **كادت** تنضج ؟! إنّ فيها كل ملامح الثمرة الناضجة أو معظمها ، ولكنها لم تنضج بعد . وهي تتغير -إذا لاحظتها- يوماً بعد يوم ، ولكنها تتغيّر وهي -تقريباً- على صورتها ! وإنّ التغيير الذي يحدث فيها لعظيم الأهمية ولا شك ، لأنه هو الذي يؤهلها لأن تصبح ثمرة ناضجة نافعة مرغوبة ومطلوبة . ولكنه لا يكاد يغيّر شيئاً من ملامحها الأصيلة ، إنما يركز كل شيء فيها حتى تصبح في النهاية مكتملة النمو ..

وهذه المرحلة من حياة الإنسان أقرب شيء إلى ذلك . إنّ ملامح الشخصية قد بدأت تبرز . وهناك تغيّر مستمر يطرأ عليها لا يتوقف . ولكنه لا يغير الملامح الرئيسية بقدر ما يركزها ويزيدها بروزاً ، حـــتى تـــصل إلى صـــورتها المتكاملة ، إنه لا يضيف عناصر جديدة بقدر ما يقوي ويركز ويصقل العناصر الموجودة بالفعل . وهذا هـــو الـــذي يميّزها أساساً عن المرحلتين السابقتين . فالتغيّر في مرحلة الطفولة هو تغيّر إضافة مستمرة . إضافة عناصر جديـــدة لم تكن موجودة من قبل (أي كانت كامنة لم تظهر بعد ، كما تكون الزهرة كامنة في كِمِّها لا تراها العيون) والتغير في مرحلة المراهقة هو تغير إضافة كذلك . ففي الجسم تنمو أعضاء كانت ساكنة من قبل وتؤدي وظائف جديدة لم تكن تؤدَّى من قبل ، وفي النفس تتفجر مشاعر وعواطف من نوع جديد لم يكن موجوداً من قبل ، واهتمامات جديـــدة مفاجئة . ولكن الذي يفرقها عن مرحلة الطفولة أن الإضافات هنا حادة ومتفجرة ، وفي الطفولة كانـــت تدريجيـــة

وبطيئة .

أما مرحلة الشباب الباكر التي تؤدّي إلى النضج ، فهي مع حيويتها الفائقة وخصوبتها ، فإن الإضافة الهامة فيهـــا هي الإضافة التي توسِّع وتعمق ما هو موجود بالفعل من الناحية الجسدية والعقلية والنفسية والروحية ، أكثر مما هـــي إضافة عناصر جديدة لم تكن موجودة من قبل .

وليس معنى هذا أنه لا تضاف عناصر جديدة إلى الشخصية ! كلا ! بل هناك إضافات هامة وخطيرة وحيوية . بل معناه فقط أن الصورة الحقيقية للإضافة ليست كما يراها الشاب من زاوية رصده الخاصة حين ينظر إلى نفسه ، فيظن أن كل شيء فيه قد تغير ، وأنه يفتح كل يوم آفاقاً جديدة ويكتشف من نفسه جديداً كل يوم !

إنما السبب في هذه الرؤية التي يراها الشاب في نفسه أنه الآن قد دخل في مرحلة الوعي . فهو يعـــي أحاسيـــسه وأفكاره ، ويعي التغيرات التي تطرأ على نفسه وفكره وجسمه وروحه ، فيخيل إليه أنها جديدة جدة كاملة ، وأنها قد نبتت في كيانه فجأة جذور سابقة !

أما الذي يرقب الأحوال من الخارج فإن له رؤية أخرى !

صحيح أنه جدّت –وتجد– أشياء جديدة لم يكن لها وجود واضح من قبل ، ولكن معظم التغيّر الحادث هـــو في الحقيقة إضافة على الخطوط الموجودة بالفعل ، والتي لم يكن الشاب على وعي كامل بها من قبل ، لأنه –في المراهقة– يعيش فترة حالمة ، تحلم أكثر مما تتجه إلى الإدراك والوعي .

ففي المراهقة تبدأ فورة الجسد . وفي الشباب الباكر تتركز هذه الفورة وتزداد قوة ، سواء في طول القامة ، أو نمو الأعضاء ، أو قيامها بوظائفها .

وفي المراهقة كذلك تبدأ فورة النفس والمشاعر ، وفورة الأحلام والتطلعات ، وفورة القيم والمبادئ . وفي الشباب الباكر تتركز هذه الفورة وتزداد قوة . فالمشاعر متحمسة ، والعواطف جياشة . والأحلام والتطلعات أقوى ولكنـــها أكثر واقعية من خيالات المراهقة الحالمة ، لأنها تتطلع إلى حلول عملية (سواء كانت هذه الحلول ممكنة التطبيق حقيقة أو متعذرة أو حتى مستحيلة ! إنما المهم أن طريقة تناولها والتفكير فيها طريقة عملية وليست مجرد خيالات حالمة على طريقة المراهقة) أما القيم والمبادئ فهي اليوم أكثر اتساعاً وأكثر وعياً وأكثر جدية ، في حين كانت في فترة المراهقـــة قيماً ساذجة ومبادئ محصورة النطاق .

وفي المراهقة بدأت المواهب والاستعدادات تظهر ولكنها الآن أكثر بروزاً وأوضح .

وهكذا يمكن أن نقول في جميع الاتجاهات .. فيها إضافة ، وإضافة حيوية ، ولكنها إضافة التعميق والتحسين فيما هو موجود بالفعل ، أكثر مما هي إضافة جديد لم تكن له جذور من قبل .

ومع ذلك لا يخلو الأمر قط من إضافة عناصر جديدة كل الجدة ، تفجرهـــا الخـــبرات المكتـــسبة أو الظـــروف والملابسات .

* * *

وإذا كانت هذه رؤية عامة لهذه المرحلة من العمر ، فإنه يجب أن نفرق تفريقاً واضحاً بين البنين والبنات فيهـــا ، لأن الواقع الفطري هو الذي ينشئ تلك الفرقة ، ولو كرهتها الجاهلية المعاصرة وحاولت أن تغفلها أو حتى تتـــبجح بإنكارها ، أو تعمل على إزالتها .

إنّ المشهود الذي يقرره علم وظائف الأعضاء ، وكانت أجيال البشرية السابقة تعرفه وتقره وتتعامل على أساسه حتى جاءت الجاهلية المعاصرة فحاولت أن تنفيه أو تنفي آثاره ، هو أن البنات أسرع نضجاً من البنين في هذه المرحلة بشكل واضح . فإذا كانت مرحلة البلوغ متساوية –تقريباً– عند البنين والبنات فيما بين الثالثة عشر والرابعة عشر في الغالب[1] ، فإن النمو بعد ذلك لا يأخذ طريقاً متساوياً عند البنين والبنات فبينما تسرع الفتاة فتأخذ تمـــام نـــضجها الجسدي ابتداء من السادسة عشرة أو السابعة عشرة ، يتأخر الفتى فلا يصل إلى مثل هذا المستوى من النـــضج قبـــل العشرين أو الحادية والعشرين .

وبينما يكون الشبان –على الرغم من المسحة العاطفية العامة التي تشمل الجنسين في تلك الفترة –أكثر اهتمامـــاً بالمسائل العامة ، سياسية واجتماعية وبشرية ، وأكثر ميلاً إلى التفكير الفلسفي والعقلي ، وأكثر اهتماماً بتغيير الواقع وإصلاحه ، تكون الفتيات أكثر انشغالاً بأمور ذات صبغة خاصة أو عائلية ، وأكثر انسياقاً مع الأمـــور العاطفيـــة ، وأكثر إحساساً بنتائج التغير الجسدي الذي يصل سريعاً إلى مرحلة النضج ، فتكون أكثر انشغالاً بهندامها وزينتـــها ، وأكثر تفكيراً في الزوج المرتقب أو الخطيب ، وأكثر استعداداً لبدء الحياة البيتية التي تحلم بها ، التي يكون لها فيها كيان مستقل وزوج وأولاد ..

والجاهلية المعاصرة تكره أن تقر بهذا الواقع ، لأن لها مخططات لا يناسبها الإقرار به ومسايرته . ومن ثم فهي إمـــا أن تتجاهله أو تنفيه أو تحاول العمل على تغييره .

ومن بين وسائل التغيير التي تحاولها توحيد برامج الدراسة وتوحيد سنوات الدراسة ومراحلها كذلك .

فتوحيد برامج الدراسة تحاول به هذه الجاهلية أن تبث (الاسترجال) في عقل المرأة على خط مضاد لخط أنوثتـــها المتميز ، إذ أنها برامج رجالية في الأصل تدفع إليها المرأة دفعاً سواء كانت مناسبة أو غير مناسبة لطبيعتها ، وتوحيـــد

سنوات الدراسة ومراحلها تهدف به إلى تأخير سن التخرج بالنسبة للفتاة وبالتالي تأخير سن الزواج عن اللحظة الـــتي يكتمل فيها نموها الجسدي وتكون كاملة الخصوبة وكاملة الاستعداد .

ويبرر هذا بمبررات –ظاهرية– كثيرة ومتنوعة .

فتارة يقال إنّ العلم قد أثبت أن البنت والولد متساويان في نسبة الذكاء . وتارة يقال إنّ التجربة العملية أثبتت أن البنت أكثر تفوقاً من الولد في مواده الرجالية . وتارة يقال إنّ الزواج الباكر للبنت هو (وأد) لمواهبـــها وعبقريتـــها ! وحرمان للمجتمع من نشاطها ! وتارة يقال إنّ الزواج فن يحتاج إلى (خبرة) وإن الفتاة ينبغي أن تحصل علـــى هـــذه الخبرة من تجاربها الاجتماعية –والعاطفية كذلك!– لكي تصبح زوجة (صالحة!) . وتارة يقال إنّ الزواج تكـــاليف ، وإن المرأة ينبغي أن تسهم في التكاليف بأن تكون عاملة متكسبة ، ولن تعمل وتتكسب حتى تتخطى كـــل مراحـــل الدراسة وسنواتها الطوال!

وفي أثناء هذا كله تحرص الجاهلية –بطبيعة الحال– على ألا تكبت كيان الفتاة الأنثوي –ولا كيان الشاب كذلك بالطبع– في أثناء هذه المراحل الطويلة التي تمر حتى يتخرج الولد والبنت ، وبعدها بزمان طويل حتى يفكرا في الزواج أو يحاولانه بالفعل . ومن ثم تطلق الأولاد والبنات بغير قيود على الإطلاق ابتداء من فترة المراهقـــة يمارســـون كـــل علاقات الجنس –سوية أو شاذة– حتى لا يصيبهم الكبت ، الذي هو أخطر ما تخشاه الجاهلية على الأولاد والبنـــات سواء !

ومن بين وسائل التغيير كذلك محاولة شغل البنات بالأمور العامة –ولو تظاهراً– لنفي اتجاه البنات في هذه الـــسن إلى كيانهن الخاص !

ومن بينها كذلك نزع الحياء الفطري ، الذي هو من سمات الأنثى عامة ، ومن سمات هذه الفترة بصفة خاصة ، وذلك بتعرية الجسد حتى يفقد حياءه ، وتشجيع الحديث في مسائل الجنس –فضلاً عن الممارسة بالطبع– لأن الحديث المكشوف في مسائل الجنس أشد قتلاً للحياء من الممارسة الفعلية التي يمكن أن تتم في خفاء عن العيون (وإن كانت في الجاهلية تتم في غير خفاء إمعاناً في قتل الحياء!)

ومن بينها كذلك توحيد نوع التعامل بين الذكر والأنثى في كل شيء . في الدراسة –والجامعية بصفة خاصـــة– وفي الوظيفة . وفي الشارع . وفي المركبة العامة . وفي لوائح الدولة . وفي المحظور وفي المباح .. وفي كل شيء علـــى الإطلاق .. حتى تنسى البنت أنها أنثى إلى أن تشملها لحظة الجنس المسعورة فينكشف هذا القناع الزائـــف كلـــه ، وتمارس الجنس أنثى بين أحضان الذكور !

والفطرة أعمق وأصدق وأعصى من كل هذه المحاولات !

ولا يعنينا –ونحن نتحدث عن منهج التربية الإسلاميّة– ماذا تقول الجاهليات وماذا تصنع . إنما أشرنا هذه الإشارة بسبب ما يقع في مجتمعاتنا نحن الجاهلية التي تأخذ وسائل حياتها وغاياتها من تلك الجاهلية الغربية ، فتضع للبنات ذات المناهج التي تضعها للبنين ، وتمررهن في ذات المراحل الدراسية وذات السنوات ، ثم تتجه اتجاهاً متزايداً إلى إلغاء كل فرق في التعامل بين البنين والبنات في كل شيء ، حتى التدريب العسكري في المدارس والجامعات ! وذلك فضلاً عن اتباع ذات الوسائل والغايات في تأخير سن الزواج للأولاد والبنات ، ورفع الحظر عن العلاقات (الحرة) في المرحلة الطويلة التي تسبق الزواج !

قال رسول الله ﷺ : « **لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ ، حَتَّى إِنْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ دَخَلْتُمُوهُ ! قَالُوا : الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟! قَالَ : الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى** »[2]

ومصداق ذلك ما يحدث اليوم في جاهلية القرن العشرين ! سواء من جانب اليهود والنصارى أو من جانب (المسلمين !)

* * *

ولئن كانت فترة الطفولة في حاجة إلى رعاية شديدة من المربين لأنها الفترة التي توضع فيها الأسس التي ترتكز عليها الشخصية فيما بعد ، وكانت فترة المراهقة في حاجة إلى رعاية شديدة كذلك لأنها مرحلة تفجر في كيان الطفل ، إن لم توجه له العناية فهو عرضة أن يدمر هذا الكيان وينشّئه في طريق محفوف بالمخاطر ، فإن مرحلة الشباب الباكر أشد حاجة إلى الرعاية لأنها فترة تكوّن الثمرة المؤدي إلى النضج ، وما لم تُتَعهَّد هذه الثمرة فإن جهد الغرس كله يمكن أن يضيع !

وبسبب الخصوبة الفائقة في تلك الفترة تكون الحاجة الشديدة إلى الرعاية ، لأنها يمكن أن تكون خصبة في الشر بقدر ما يمكن أن تكون خصبة في الخير . والتوجيه الرشيد هو الذي يستطيع أن يغلّب احتمال الخير ، ويجعل الثمرة تنضج –في موعدها– على سواء ، بينما الغفلة والإهمال ، أو التوجيه الخاطئ ، يمكن أن يؤدي إلى تغليب احتمال الشر ، وتخريج شخصية شاذة أو منحرفة يشقى بها صاحبها ويشقى معه أهله ، وقد يشقى بها المجتمع أو تشقى بها البشرية !! وكم من طغاة التاريخ الذين تسميهم الجاهلية (عظماء !) قد تلقوا بذور انحرافاتهم في هذه الفترة الخطيرة من العمر .. ثم تلقفتهم الشياطين ![3]

* * *

تبدأ المرحلة التي نحن بصددها من نهاية المراهقة وتنتهي بمرحلة النضج . وإذا كان من العسير أن نحدد حدوداً حاسمة لأيّ مرحلة من مراحل العمر ، لأنها جميعاً متداخلة بعضها في بعض ، ومتدرجة بعضها من بعض ، فإن هناك

حدوداً تقريبية لكل مرحلة ، لا تخطئ العين رؤيتها وتقديرها ، وإن كانت تختلف مع ذلك اختلافات فردية من إنسان إلى آخر .

والذي يغلب على مجموع الأطفال أن تبدأ مرحلة المراهقة ما بين الثانية عشرة والثالثة عشرة ، وأن تنتهي ما بـــين السابعة عشرة والثامنة عشرة لتبدأ مرحلة الشباب الباكر ، التي تستغرق ما بين هذه السن إلى ما بعد العشرين بقليل .

فإذا افترضنا بصفة عامة أن الشاب الذي نتحدث عنه الآن هو ما بين الثامنة عشرة والخامسة والعـــشرين ، فـــلا ينفي ذلك أن أفراداً من الشباب يبدأون قبل ذلك بعام أو عامين لأن عندهم استعدادات فائقة ، وتبكيراً في النمـــو ، وأن أفراداً آخرين يتأخرون بعض الشيء في نقطة البدء أي يظلون في فترة المراهقة مدة أطول .

ثم ينبغي أن نعلم كذلك أن المرحلة ذاتها تختلف بالنسبة للفتيات . فإذا كانت بداية المراهقة واحدة بالنسبة للبنين والبنات فإن الانتقال منها إلى مرحلة الشباب الباكر أسرع بالنسبة للبنات ، لأن نموهن الجسدي أسرع بكثير ، والنمو النفسي يتواكب مع النمو الجسدي كذلك فيسبق مثيله عند الأولاد . ومن هنا فلا تلبث الفتاة أن تكون مراهقة حتى تكون شابة ! وقد يظل نموها العقلي في طريقه المتدرج ولكن نموها النفسي والعاطفي ينضج أسرع . فإذا أخذنا فـــتى وفتاة في سن السابعة عشرة فقد يكون مستواهما العقلي واحداً أو متقارباً أو يكون الفتى أسبق ، ولكن نموهما النفسي لا يكون كذلك . فبينما الفتى تبدو عليه بقايا الطفولة التي يحاول إخفاءها ليظهر بمظهر الرجال ، فإن البنت لا يمكن أن تخطئها العين فتحسبها طفلة ، سواء في تكوين جسدها أو تصرفها كأنثى ؛ إنما غاية ما يقال فيها إنها أنثى صغيرة ، بينما لا يقال للولد –بعد– إنه رجل صغير !

وبالإضافة إلى ذلك فإن خط النضج ذاته مختلف .

فليست المسألة فقط أن الفتاة تنضج أسرع من الفتى ، ولكنها كذلك تنضج على خط مخالف ، رغم وجود سمات عامة مشتركة بين الذكور والإناث في هذه المرحلة وفي كل مرحلة من مراحل العمر كله .

ولحكمة عليا خلق الله هذا الاختلاف ، ليتهيأ كل من الجنسين لوظيفته وتكاليفه . فإذا كانـــت الجاهليـــات –أو الجاهلية المعاصرة بصفة خاصة– تريد أن تغير خلق الله ، وتبذل في ذلك أقصى جهدها ، فليست العبرة بمـــا تـــصنعه الجاهلية في هذا السبيل ، إنما العبرة بالنتائج المترتبة على معاكسة خط الفطرة وتغيير خلق الله . أهي نتـــائج ســـعيدة وسارة ؟ أم إنها –كما يشهد واقع المجتمعات التي تحكمها هذه الجاهلية –هي الحيرة والقلق والاضطراب والـــضياع ، والأمراض النفسية والعصبية والانتحار والجنون ، والشذوذ والتشرد والجنوح الإجرامي ، وزيادة نـــسبة الطـــلاق ، وتفكك الأسرة ، والشقاء الذي يهرب منه الناس بالإدمان على الخمر والإدمان على المخدرات ؟!

وليست هذه الآثار كلها ناجمة بطبيعة الحال عن مرض واحد بعينه أو انحراف واحد من انحرافات الجاهلية ، بـــل هي حصيلة كل الأمراض وكل الانحرافات في وقت واحد . ولكن من أبرزها جميعاً ولا شك إفساد فطرة المرأة بقضية المساواة بين الجنسين ، ومحاولة (ترجيل) المرأة وصرفها عن أنوثتها ووظائفها الأنثوية في ذات الوقت الذي تدفع فيـــه هي والرجل سواء إلى حمأة الجنس المسعورة ، حيث يبقى لها هذا المجال وحده –من كل مجالات حياتها– تمارس فيـــه كيانها كأنثى ، ولكن في غير النظافة اللائقة بالإنسان ، الذي كرمه الله ورفعه –منذ خلقه إنـــساناً– أن يهـــبط إلى مستوى الحيوان !

وسواء كانت المرأة الجاهلية المعاصرة في الغرب واعية أو غير واعية لذلك التناقض الحادث في شخصيتها ، حيث تمارس الحياة كلها رجلاً أو امرأة رجلة إلاّ لحظة الجنس المسعورة فتمارسها أنثى بطبيعة الأنثى وكيان الأنثى ، فـــإن هذا التناقض يسري في كيانها ويمزقه على أي حال ويحمله فوق طاقته . وقد بدأت أخيراً –رغم كل محاولات الجاهلية لصدها عن إفاقتها– بدأت تشكو شقاوتها علانية في الصحف والحلقات التلفزيونية ، وتقول إنها ضـــجرت وتعبـــت وتريد أن تعود إلى البيت أنثى وأم أولاد ![4]

وخلاصة القول بالنسبة إلينا أننا لا بد أن نتحدث حديثين مختلفين –في هذا الفصل والفصل الذي يليه[5]– عن كل من الجنسين ، رغم وجود سمات عامة مشتركة بين الجنسين ، فهما –من قبل ومن بعد– جنسان من كائن واحد هو (الإنسان) !

* * *

نحن الآن مع كائن هو في حس نفسه جديد كل الجدة ، وهو في حسنا نحن ابننا أو بنتنا اللذين كانا منـــذ قليـــل طفلين كبيرين ، نلحظ نموهما الصاعد ولكنه لا يفجؤنا كثيراً كما يفجأ الشابَّ نفسه أو الفتاة ! وحقيقة إن هناك ما يفجؤنا من حال هذا الكائن الجديد . ولكن ألم يفجأنا وهو وليد حين حاول الكلام أول مرة ، وحين حاول المـــشي أول مرة ، وحين بدأ ينطق بعض الكلمات بالفعل ، وحين خطا خطواته الأولى بالفعل ؟!

ألم يفجأنا بعد ذلك حين استقامت لغته واستقام مشيه وجريه وصعوده وهبوطه ؟ ألم يفجأنا وهو يفـــك لعبتـــه ويحاول إعادة تركيبها ، وحين حاول أن يركب الدراجة أو يقفز فوق السور ؟ ألم يفجأنا حين بدأ يـــتعلم القـــراءة ويتعلم الحساب ؟ ألم يفجأنا حين ذهب إلى السوق أول مرة وعاد ؟؟ وحين ذهب إلى المدرس وعاد ؟ وحـــين بـــدأ يستذكر دروسه ؟

ألم يفجأنا –في مراهقته– بتغيرات جسده ونفسه وشعوره وفكره ؟!

بلى ! وهو اليوم يفجؤنا كذلك بما يجدّ من شؤونه ! ولكنه ليس –كما هو في حس نفسه– كائناً جديـــداً كـــل

الجدة هبط اللحظة من السماء ! ذلك أنه يعي أحواله –عن كثب– لأول مرة ، أما نحن فنعي أحواله –عن كثـــب– منذ هو في (اللغة) وليد !

ومع ذلك فكمية التغير التي نلحظها ضخمة وهائلة ، وإن كانت كما قلنا من قبل لا تتعلق بإضافة عناصر جديدة لم يكن لها وجود من قبل بقدر ما تتعلق بالزيادة والبروز فيما هو كائن من قبل بالفعل .

فأما الشاب فقد بدأت عضلاته تبرز ، وبدأ هو كذلك يهتم بإبراز عضلاته . إنه يمارس ألواناً من الرياضة البدنية بغير ملل ، يصرف فيها جزءاً من طاقته الحيوية الفائضة ، ويستكمل بها في ذات الوقت نمـــوه الجـــسمي وقدراتـــه الجسمية ، من رشاقة الحركة والتوازن والصلابة والاحتمال .

وتختلف الميول الرياضية كثيراً من شاب إلى آخر . فهذا يحب كرة القدم ، وهذا يحب كرة السلة ، وهذا يحـــب (العقلة) و(المتوازيين) ، وهذا يحب رفع الأثقال ، وهذا يحب ركوب الدراجة ، وهذا يحب ركوب الخيل ، وهذا يحب السباحة أو التجديف . ولكن الأغلب أن تكون للشاب ممارسات رياضية مختلفة مع هواية محببة غالبة عليه .

ولا يمنع هذا من وجود حالات شاذة لا تميل إلى الرياضة لأسباب جسدية أو أسباب نفسية ..

فأما الأسباب الجسدية فقد تكون ضعفاً وراثياً أو مكتسباً نتيجة أمراض في الطفولة ، تجعل الرياضة أمراً شـــاقاً أو مجهداً فينصرف الشاب عنها على رغبة فيها أو على عزوف .

وأما الأسباب النفسية فقد تكون انطواءً وخجلاً وخشية من الفشل أمام الآخرين ، أي نقصاً في ثقة الولد بنفسه بصفة عامة ، وقد تكون اعتداداً شديداً بالنفس ولكن في اتجاه آخر ! فقد يخيل للفتى أنه عبقري أو فيلسوف أو أديب أو فنان .. وأنه من أجل ذلك أرفع من أن يتميّز بطاقته البدنية ، لأنه يتميّز بطاقته العقلية أو موهبته الفنيـــة ! أو قـــد تستغرقه هذه الموهبة بالفعل فتأخذ وقته وجهده فينصرف عن الرياضة . أو قد تكون له هواية عقلية كالـــشطرنج أو الورق يجلس إليها الساعات الطوال لا يتحرك فيتعود جسمه على السكون بدلاً من الحركة . أو قد تكون له مفاسد خلقية تشغله عن رياضته .

* * *

ثم إنّ مواهبه واستعداداته بدأت تبرز ، وبدأ هو يهتم بإبرازها والتميّز بها ومحاولة التفوق بها على الآخرين .

والمواهب والاستعدادات كثيرة ومتنوعة . فهذا ميال للآداب أو الفنون ، وهذا ميال للعلوم أو المهارة اليدويـــة . هذا له قدرة على حفظ الشعر أو النصوص الأدبية أو له براعة أسلوبية نثرية أو شعرية . وهذا رسام مـــاهر . وهـــذا بارع في حل المسائل الرياضية . وهذا له ميول هندسية أو ميكانيكية .. إلخ .. إلخ .

ولقد ظهرت هذه المواهب والاستعدادات من قبل في فترة المراهقة ولكنها كانت ما تزال طفلة . أما اليوم فهـــي أبرز وأوضح ، ولها إنتاج ظاهر . وعلى أساسها يختار الشاب حرفته المستقبلة ، سواء وفق في دراسته للوصول إليها أم لم يوفق فهو يقول لنفسه : أريد أن أكون طبيباً أو مهندساً أو أديباً أو فناناً أو باحثاً اجتماعياً أو مؤرخا .. أو فيلسوفاً ! ويحاول أن يختار الدراسة التي تناسب استعداداته وميوله .

وفي حالات شاذة نادرة يحلم بالبطولة عن طريق الشر ، فيقول لنفسه : أريد أن أكون فتّاكاً أو قاطع طريـــق أو عضواً في عصابة من العصابات التي ترهب الناس .

* * *

ثم لقد نما نمواً نفسياً هائلاً في هذه الفترة ..

لقد كان في طفولته مشغولاً بنفسه يعيش في محيطها ، وفي حدود عالم قريب محدود . فطعامه وشرابه وإفرازاتـــه وملابسه ولعبه وأدواته هي المسائل الكبرى التي تشغله ، والتي يطلب من والديه أن يحققاها له كلما أرادها أو رغـــب فيها ؛ وهو يتوقع من والديه أن يكونا تحت تصرفه دائماً كلما أرادهما أو أراد منهما أن يحققا له شيئاً مـــن مطالبـــه المتوالية التي لا تكف وإن كانت محدودة النطاق .

ثم يكبر قليلاً ، ويتسع عالمه قليلاً ، ولكنه ما زال ممركزاً حول نفسه . فذاته هي مركز حياته ومركز اهتمامـــه . وأبواه ، ومن حوله ، هم (الأدوات) التي يستخدمها لتحقيق رغباته ، ويتوقع منهما أن يكونا دائمي الاهتمام بـــه ، دائمي التلبية لما يعنّ له من حاجات .

فإذا استقام على منهج التربية السليم فسيتعود أن يضبط بعض رغباته ويسيطر عليها ، ولكنه ما زال يعيش ممركزاً حول ذاته لأن هذا طابع المرحلة الطبيعي الذي لا بد أن يأخذ مجراه .

ثم يكبر أكثر ، ويتسع عالمه أكثر ، فيتعرف على وجوه جديدة غير الوالدين ، وأماكن جديدة غـــير المنـــــزل ، وتنشأ بينه وبين بعض الناس وبعض الأماكن صداقات ، ويطلب من والديه أن يخرجا به خارج المنـــزل ليرى شـــيئاً معيناً مما أصبح يحبه ، أو يلتقي بأشخاص معينين صغار أو كبار يكون قد تعلق بهم .. ولكنه ما زال في ذلـــك كلـــه مركز الاهتمام حول ذاته قبل كل شيء .

ومنهج التربية السليم يعوده شيئاً فشيئاً أن يخرج من دائرة ذاته ، فيعطي من لعبه ومن حلواه لأطفـــال غـــيره ، ويتعاون معهم في اللعب ، ويتعود أن يأخذ منهم ويعطي . كما يعوده أن يلتزم آداباً معينة تجاه الآخرين تخرجه مـــن دائرة ذاته إلى تعود احترام الآخرين ، فيتعود أن يحس بوجود ذوات أخرى غير ذاته ، فيخف تدريجياً تعلقه بذاته .

وكل ذلك واجب على المربي ، ولكنه يؤتي ثماره على المدى ، ويظل طابع الطفولة هو التمركز حول الذات .

ثم تجيء فترة المراهقة فيحدث فيها نمو نفساني ملحوظ .

إنّ المراهق أيضاً ممركز حول ذاته ، ولكن على طريقة أخرى غير طريقة الطفل . ثم إنه –مع اهتمامـــه الـــشديد بذاته ، ورغبته الشديدة في أن يظل اهتمام الآخرين متعلقاً به ، فإن له مشاعر كثيرة يتوجه بها نحو الآخرين ، ويهـــتم فيها بأشخاصهم .

إنّ الطفل –في تمركزه حول نفسه– يظل يستخدم الآخرين لتحقيق طلباته ، لأنه بطبيعة الحال لا يملك أن يلـــبي لنفسه كل ما يريد من حاجات وإن رُبِّي تربية استقلالية وعُوِّد منذ صغره الاعتماد على نفسه . أما المراهق فإنه –في تمركزه حول نفسه– يريد أن يثبت وجوده . يريد أن يهتم الناس به لما يفعله هو لا بما يفعله الآخرون له ! إنـــه –في خياله أو في وهمه– بطل ! إنه خارق القدرة ! إنه حدث تاريخي ! وهو يريد من الناس أن يعرفوا بطولته الفائقة هـــذه ويقروا بها ! ولذلك فهو يحاول لفت نظرهم دائماً بما يأتي من الأعمال التي يراها خارقة وغير مسبوقة !

ومن جانب آخر فإن خط (الغيرية) قد نما في نفسه ، وله تعلقات بالآخرين من جنسه أو من الجنس الآخر(6) ، يعطي فيها نفسه بكاملها ، ويجد متعة كاملة في ذلك الأمر !

وقد يبدو الأمر لأول وهلة متناقضا . فكيف يكون متمركزاً حول ذاته ، وكيف يعطي نفسه للآخـــرين في ذات الوقت ؟

أما مظهر التناقض –بصفة عامة– فهو من سمات مرحلة المراهقة ! ولكنه ليس تناقضاً في الحقيقة ، إنما هو تقلـــب سريع من خيط من خيوط النفس إلى خيط آخر ، أو من وجهة إلى وجهة أخرى ، فيبدو المراهق متناقضاً في ظـــاهر الأمر ، وحقيقته أنه يتقلب بسرعة بين مجموعة من الاتجاهات **الطبيعية** في النفس البشرية ، كأنما يتـــدرب –في هـــذه الفورة– على استخدام جميع الاتجاهات ، فيذهب هنا لحظة ويذهب هناك في اللحظة التالية .

والتربية السليمة تحد من غلواء المراهقة ، وتعلم المراهق ضبط انفعالاته وأحاسيسه ، فتخف حدة التقلب السريع ، فيبدو أقل تناقضاً حين ينتقل من خيط إلى خيط ، أو من اتجاه إلى اتجاه .

إنما الذي نشير إليه هنا أنه قد يعطي نفسه للآخرين وهو ما زال متمركزاً حول ذاته ! إذ أنه –في خيالاته الحالمة– يزداد إحساساً بعظمة نفسه كلما أعطى نفسه للآخرين ! فهو محب مثالي ووفيّ مثالي ومخلص مثـــالي ، ومهـــذب مثالي .. إلخ وكلما ازداد في خصلة من هؤلاء ازداد شعوراً بأنه عظيم !

والتربية السليمة ينبغي أن تفصل بين الأمرين ، وتجعل الحب والوفاء والإخلاص والصدق والأمانـــة والاســـتقامة والتهذيب .. إلخ قيماً قائمة بذاتها ، تحترم من أجل ذاتها لا من أجل استشعار العظمة الذاتية في أدائها . وذلك يجعلها لله . وحين تكون لله ينتفي عنها الرياء ، الذي يشمل إعجاب الإنسان بنفسه .

ولا شك أن المراهق المسلم شيء آخر مختلف كثيراً عن المراهق الجاهلي ، في هذه النقطة وفي غيرها من النقـــاط كما بيّنا في الفصل السابق . ولكن ليس في الإمكان –ولا في المصلحة– قتل الشعور بالذات في هذه المرحلـــة ، ولا كذلك في أيّ مرحلة أخرى .. إنما ينبغي تهذيب هذا الشعور بما بيّنا من منهج التربية الإسلاميّة وما سنبين فيما بعد ..

أما الفترة التي نحن بصددها فقد حدث فيها نمو نفسي هائل .

لم يعد الفتى ممركزاً حول ذاته بالصورة التي كان عليها في الطفولة وفي المراهقة ، إنما صار خط (الغيرية) واضـــحاً وبارزاً في نفسه وفي حياته .

لم يفقد إحساسه بذاته ، وليس من المصلحة أن يحدث ذلك .

ولكن انظر إلى اهتماماته ..

لقد كان المراهق مهتماً بالغير .. ولكن من كان أولئك الغير ؟ إنهم أشخاص محدودون يتعلق بهـــم ولاؤه وحبـــه وعواطفه . أما المجتمع .. أما المجموع البشري .. فأشباح من بعيد لم تتبين ملامحها في حسه بعد .

أما الشاب فقد اقترب من الصورة أو اقتربت منه الصورة حتى صارت في البؤرة وصارت محل التركيز .

إنه اليوم مشغول بالمجتمع من حوله ، ومشغول بالبشرية ! مشغول (بالغير) !

ما سبب تعاسة الناس في الأرض ؟ ما سبب ما يقع على البشر من مظالم ؟

هل السبب كامن في الناس أنفسهم ؟ أم في حكامهم ؟ أم في النظم السائدة بينهم ؟

ومن أين يبدأ الإصلاح والتغيير لإزالة الظلم والشقاء في المجتمع القريب أو في البشرية كلها على السواء : يبدأ من إصلاح الناس ، أو إصلاح الحكام ، أو إصلاح النظم ؟

وما طريق الإصلاح لهؤلاء أو هؤلاء أو تلك ؟ وما المبادئ التي يقوم عليها الإصلاح ؟

ومَن –مِنَ الجماعات أو الهيئات أو الأحزاب أو التكتلات– هو أقومها مبادئ ، وأقومها طريقـــة ، وأقربهـــا إلى تحقيق الإصلاح المنشود ؟

ومن هذا الخيط يسعى الشباب من جانبه إلى (الانتماء) ، وتتسارع الجماعات والهيئات والأحزاب والتكتلات إلى جذب الشباب إليها من هذا الخيط ، لأنها تعلم وجوده ، وتستغل وجوده ، ثم تمضي بالشباب بعد ذلـــك في طريـــق الهدى أو في طريق الضلال .. في طريق الله أو في طريق الشيطان . وما أقل فيها من يتجه إلى الله ، وما أكثر من يتجه إلى الشيطان . والشباب في الحالتين منقاد بإخلاصه الذاتي لمن يظن أنه على يديهم يتم الخـــلاص .. ويبيـــت يحلـــم (بالبطولة) عن هذا الطريق .

وتصل مشاعر الشباب في هذه الأمور إلى درجة الحماسة المتوقدة وإلى درجة الفدائية والتضحية بالنفس في سبيل ما يرى أنه الحق . وتستغل الهيئات والدول هذه المشاعر لما تريد تحقيقه من خير حقيقي أو خير مزيف أو شر صريح ! فتجند طاقة الشباب وحماسته وفدائيته في الطريق الذي تريد ، فيسخو الشباب بما يراد منه من جهد أو مال أو تعرض للخطر أو بذل للدماء . ومن أجل هذا تستكثر التكتلات الحركية من الشباب بين أعضائها ، ومن أجل ذلك تجنـــد الدول جيوشها من الشباب .

وإذا كانت هذه هي الصورة العامة ، فلا ينفي ذلك وجود حالات شاذة نادرة ينحرف فيها إحساس الـــشباب (بالغير) إلى بغض وكراهية ، أو متعة مريضة وتلذذ بالشر والإيذاء ، فيجند الشاب ولاءه وجهده وفدائيته لعـــصابات القتل والسلب والنهب والاعتداء على الأموال والأنفس والأعراض .. ويجد (بطولته) في هذا الطريق !

* * *

وينمو الشاب عاطفياً كذلك .

لقد كان في مراهقته يتخذ أصدقاء يلعب معهم حيناً ويلهو ، ويستذكر معهم حيناً آخر ، ويخرجون في نزهات أو جولات ، ويكوّنون أحياناً (جماعات) صغيرة تقوم ببعض ألوان النشاط . ثم كانت له (اهتمامات) بالجنس الآخر[7] .

أما اليوم فقد اتسع مجال عواطفه وتضاعف ..

إنّ له اليوم أصدقاء ، قد يصطفي من بينهم واحداً أو أكثر يلازمه ويستخلصه لنفسه ويفضي إليه بـــذات نفـــسه وأسراره . ولكنه مع ذلك قادر على منح صداقته وزمالته لعدد واسع من الناس . ومن هنا يمكن أن يحـــس بالزمالـــة لفرقة كاملة من فرق الدراسة –وخاصة الدراسة الجامعية– بينما كان في مراهقته لا يصادق مـــن فرقتـــه إلاّ أفـــراداً معينين . ويستطيع أن يحس بالزمالة لفريق رياضي كامل ، أو بمجموعة كبيرة من البشر في الهيئة أو الجماعة أو الحزب

أو التكتل الذي ينتمي إليه . وتظل هذه الزمالة أو الصداقة تتعمق على مدى الأيام ،ومنها ما يبقى إلى نهاية العمـــر ، بينما كانت زمالات المراهقة موقوتة سرعان ما تفرّقها الأحداث !

ثم إنّ له عواطف اجتماعية ، وأخرى إنسانية .

عواطف موجهة إلى المجتمع الذي يعيش فيه .. إلى مجموع الناس في هذا المجتمع لا إلى أعيانهم ولا أشخاص معينين منهم . يحس نحوهم برابطة ما . رابطة معنوية ولكنها عميقة وقوية . تأخذ شكل (المفهوم) الذي يعيش به ، ســـوياً كان هذا المفهوم أو غير سوي ، فتأخذ شكل أخوة في الله . أو شكل رابطة وطنيـــة ، أو قوميـــة ، أو عرقيـــة ، أو لغوية .. أو ما يكون من أنواع الروابط بين الناس .

وعواطف موجهة إلى الإنسانية .. إلى المجموع البشري بصرف النظر عن الأقوام والأجناس واللغات والألـــوان .. يحب أن يتعرف إليهم ، ويحب أن يتعاون معهم على الخير ..

ولا ينفي هذا بطبيعة الحال أن تكون هناك عواطف مضادة . فالحب والكره خطان أصيلان من خطوط الفطرة . والفطرة السوية تكره كما أنها تحب . تكره الشر والباطل وتكره الشريرين والمبطلين .

ولكن بصرف النظر عن البيئة التي تحيط بالشاب والمفاهيم التي يعيشها –ونحن حتى الآن نتحدث عن (الـــشاب) بصفة عامة و لم نتحدث بعد عن (الشاب المسلم) ولا عن دور التربية الإسلاميّة في تربية الشباب –بصرف النظر عن ذلك كله– فإن وجود المشاعر (الإنسانية) وعواطف المودة والحب (للمجموع) الذي لا يراه الإنسان رؤية مباشـــرة ولكنه يتجه إليه بعواطفه ، لا ينفي كل ذلك أن تكون هناك عواطف كره وعداء ، على نفس الدرجة من الحماســـة والعمق ، لفئات معينة داخل المجتمع ، أو كتل معينة من مجموع البشرية ..

والهيئات والجماعات والأحزاب والتكتلات ، والدول كذلك ، تستغل مشاعر الكره كما تستغل مشاعر الحب ، وتجندها لحسابها ، وتصل بها إلى تحقيق أهدافها ، سواء كانت أهداف خير أو شر . وقليلاً ما تكون للخير ، وما أكثر أن تكون للشر ، وما أكثر الحروب والصراعات الباطلة في حياة البشرية ، التي يقودها أفراد وهيئات وحكومات ذات مصالح معينة .. ووقودها الشباب !

ومن بين العواطف التي نمت ما يتصل بالجنس الآخر .

لقد كانت اهتمامات بالجنس الآخر في فترة المراهقة ، وأحلام وخيالات . وقد تستمر هذه الرؤى المسحورة فترة من الوقت دون ارتباط معين . وقد ترسم هالات سحرية حول وجه معين لا مزية له في نظر الآخرين ، ولا في نظره هو نفسه حين يأخذ في شيء من النضج فيما بعد . ولكنه في تلك الفترة يضفي من خياله المسحور على كل شـــيء

حوله فتبدو الأشياء العادية كأنها أطياف من عالم مسحور !

وفي مبدأ الفترة التي نتحدث عنها تكون في نفسه بقية من هذا الخيال المسحور تشكل عواطفه نحو الجنس الآخر . ولكنها -تدريجياً- تأخذ صوراً أكثر تحديداً وأكثر واقعية .

إنّ هذه الفترة -في الفطرة السوية- هي فترة البحث الجاد عن شريكة الحياة .

وفي غير الجاهلية المعاصرة كان الناس يستجيبون لدافع الفطرة السوية ، فيتم الزواج بالفعـــل في فتـــرة الـــشباب الباكر ، ويتم النضج والشباب متزوج بالفعل ، كما يتم وهو مؤهل تأهيلاً علمياً وعملياً بالفعل ، وتكـــون تجربـــة الزواج من التجارب المؤهلة لتمام النضج .

ولكن الجاهلية المعاصرة -لأمور كثيرة تراد- أبطلت ذلك كله ، وأحدثت واقعاً اقتصادياً واجتماعيـــاً لا ييـــسر الزواج المبكر بل يضع أمامه كل العراقيل كما قال (ول ديورانت) فيما نقلناه عنه من قبل ، في ذات الوقـــت الـــذي تيسر فيه كل أنواع الفاحشة وتصبح هي الأصل في حياة الناس ! ثم تصاغ حول هذا الواقع نظريات وأفكار زائفـــة لتبريره وتثبيته وتزيينه لكي لا يرجع الناس عنه ولا يفيئوا إلى فطرتهم السوية !

فأما الواقع فهو تعجيز الشباب عن الكسب المؤهل للزواج حتى فترة متأخرة من العمر ، وتصعيب الحياة وتكـــثير مطالبها ، ورفع أسعارها حتى تصبح حاجزاً يصعب تخطيه أو يستحيل تخطيه !

وأما النظريات والأفكار فتقول إنّ الشباب ينبغي أن ينضج أولاً قبل أن يتزوج لكي يستقر زواجه فيما بعد ، ولا ينضج حتى تكون له علاقات جنسية كاملة واقعية ينضج من خلالها ، ثم يتزوج بعد ذلك إن أراد !

ومن ثم تتحول فترة الشباب الباكر في هذه الجاهلية إلى فترة من العبث الماجن الذي لا تحده حدود . ثم تؤلـــف كتب في التربية وعلم النفس تقول إنّ هذه الفترة فترة يتجه فيها كلٌّ من الجنسين إلى إقامة علاقات (واقعيـــة) مـــع الجنس الآخر للتعرف عليه تمهيداً للزواج والاستقرار الذي يأتي في مرحلة متأخرة فيما بعد ، وإنه لا بد من وجـــود هذه العلاقات وإتاحتها لكي لا يحدث الكبت واضطراب الأعصاب ، وإن الحالات التي لا تقوم فيهـــا مثـــل هـــذه العلاقات تعتبر حالات شاذة تحتاج إلى علاج ! ثم تقوم العيادات النفسية بتكملة الحلقة ، فتنصح الزائرين والزائـــرات من الشبان والفتيات أن يقيموا علاقات تُذْهِبُ عن نفوسهم الحَزَنَ وترفع الكبـــت وتطلـــق الـــشحنة الحبيـــسة في الأعصاب !

وتعلم الجاهلية في سريرة نفسها -أو يعلم الشياطين الذين يخططون لها- أن هذه كلها أمور مفتعلة وحجج غـــير حقيقية !

فهناك شباب –غير قليل– في تلك المجتمعات المتفسخة ، ينشئ علاقات (مــستقرة) أي تقــوم فيهــا معاشــرة كمعاشرة الأزواج ، ينجم عنها بنون وبنات وتؤجر لها المساكن ويشترى لها الأثاث .. ثم لا يتزوجون !! فليــست الإمكانيات المادية إذن هي التي تنقصهم ، ولا هي ضرورة النضج قبل الاستقرار ، إنما هي الرغبة المجنونة في معصية الله واتباع الشيطان !

ثم إنّ العلاقات الزوجية التي تنشأ بعد فترة العبث الماجن في الشباب الباكر لم تثبت حتى الآن أنها علاقات مستقرة وناضجة ، بل الثابت من الإحصاءات أنه كلما أمعن الشباب في (التجربة) بحثاً عن النضج المزعــوم والاســتقرار ، زادت نسبة الطلاق بعد الزواج ، وزادت البيوت المهجورة التي هجرها الزوج أو الزوجة بحثاً عن (تجربة) جديدة !

ونضرب صفحاً عن الجاهلية وما تفتعله وما تفعله ، ونعود إلى عواطف الجنس في الفطرة ، فنقول إنّ هذه الفترة هي فترة البحث الجاد عن شريكة الحياة .

فلم تعد المسألة مجرد أحلام مسحورة وهيام وخيالات . إنما هي عواطف واقعية تتجه إلى شخصية محددة . أو هو بحث واقعي عن شخصية محددة تتوفر فيها شروط معينة تتلاءم مع المفهوم الذي يعيش الشاب به ، والصورة التي يريد تحقيقها . ولا يمنع هذا من وجود الرؤى المسحورة التي تصنع الهالات حول شخصية معينة قد تبدوا في نظر الآخرين عادية بغير هالات . فهذا من طبيعة تلك الفترة من العمر عند بعض الناس على الأقل ، الذين يلعب الخيال والفن دوراً في حياتهم ، وهو من دوافع الفطرة الطبيعية التي أودعها الله في كيان الإنسان لتحدث التلاحم المطلوب بــين شــقيّ النفس الإنسانية : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ [الروم : 21] إنما الفارق بين هذه العواطف وعواطف المراهقة أنها هنا واقــع تحفــه الأحلام ، وهي هناك أحلام بغير واقع حقيقي ولا هدف واقعي ، ولا سعي جدي إلى غاية محددة

* * *

– للكلام صلة –

---

(1) في حالات نادرة يحدث البلوغ قبل ذلك –في الثانية عشرة– والبنات أكثر من البنين في ذلك ، وفي أحوال نادرة يتأخر عن الرابعة عشرة والبنات أقل من البنين في ذلك !

(2) أخرجه البخاري ومسلم .

(3) انظر –على سبيل المثال– كتاب (لعبة الأمم) تأليف مايلز كوبلاند !

(4) من بين النماذج على ذلك حلقات حوار تلفزيونية طويلة بثها التلفزيون الفرنسي ، أفضت فيها بعض نساء المجتمع بهذه الحقائق .

(5) نتحدث في الفصل القادم عن مرحلة النضج الأخيرة .

(6) في الحالات العادية لا تقوم (علاقات) حقيقية مع الجنس الآخر ، بقدر ما توجد (اهتمامات) خيالية حالمة . وإن كانت الجاهلية المعاصرة تنشئ العلاقات السوية والشاذة منذ أيام المراهقة الأولى حرصاً منها على أكبر قدر من الفساد في الأرض !

(7) نتحدث هنا –كما سبق القول– عن اتجاهات الفطرة الطبيعية ، لا عن انحرافات الجاهلية . والجاهلية المعاصرة بسلوكها الواقعي وصحافتها وإذاعتها وتلفزيونها وأفلامها وبرامجها التمثيلية هي أشد جاهليات التاريخ انغماساً في الفساد الخلقي وأكثرها ليأً للفطرة عن طريقها الصحيح .